

لقطة

ناهد المنشاوي

هل أصحاب المناصب أطول عمراً؟!

فكرة الحياة والموت تمثل دائماً لغزاً محيراً للعلماء.. ولذلك فقد خصصوا الكثير من الأبحاث والدراسات لهذا الغرض.. خاصة فيما يتعلق بطول عمر الإنسان واختلاف أعمار البشر.. فهناك من يطول عمره حتي يبلغ التسعين أو المائة عام.. وهناك من يموت في سن الأربعين.. لكن المفاجأة كانت فيما كشفتته احدي الدراسات البريطانية مؤخراً من ان اختلاف الأعمار من انسان لآخر يرتبط ارتباطاً وثيقاً باختلاف المكانة الاجتماعية خاصة الدرجة الوظيفية.. فالأشخاص الذين يتقلدون مناصب رفيعة في مجتمعات يتمتعون بصحة أفضل ممن هم أقل في الدرجة الوظيفية.. وأرجعت الدراسة إلي سوء الحالة النفسية لهؤلاء الأشخاص مما يؤثر علي حالتهم الصحية مع مرور الوقت حين كشفت الدراسة أن المخ يفرز عدداً من الهرمونات الضارة في حالة الانسان عندما يتعرض لضغوط مستمرة في العمل.

وهذه الدراسة الجديدة تم نشرها ضمن كتاب عن الوضع الاجتماعي لبروفيسور علم الأوبئة والصحة العامة في جامعة يونيفرسيتي كوليدج بلندن والذي بدأ العمل بهذه الدراسة لمدة 50 عاماً عندما كان شاباً وجاءت نتائجها لتمثل مفاجأة حيث تطرق إلي جانب لم يتطرق ولم يسبقه إليه عالم آخر وهو ارتباط طول عمر الانسان أو قصره بدرجة الوظيفية أو وضعه الاجتماعي وبالرغم من اهتمام الدراسة وتركيزها بشكل خاص علي الموظفين الحكوميين إلا انها شملت أيضا جماعات اجتماعية مختلفة مثل الأكاديميين والحاصلين علي جوائز أوسكار ولم تختلف نتائج الدراسة التي شملت هاتين الفئتين عن نتائج الدراسة الخاصة بالموظفين فقد خلصت الدراسة إلي أن الحاصلين علي درجة الدكتوراة أو الماجستير الذين يعيشون بدورهم فترة أطول من الحاصلين علي شهادة جامعية.. بينما يعيش الجامعيون فترة أطول ممن لم يكملوا دراستهم الجامعية.

وفي الوقت نفسه أظهرت الدراسة ان الممثلين الحاصلين علي جائزة أوسكار يعيشون متوسط ثلاث سنوات أطول من الذين رشحوا للحصول علي الجائزة دون أن يحصلوا عليها.. بالفعل.. ويعتقد البروفيسور مارموت أن هذه النظرية يمكن تطبيقها علي أي جماعة في المجتمع بدءاً من السياسيين ووصولاً إلي من يعيشون تحت خط الفقر حيث يؤكد ان الصحة العامة وطول العمر يتأثران بدرجة كبيرة بمكانة الانسان في المجتمع.

ويطلق المؤلف علي هذا اسم عرض الوضع الاجتماعي وهو نفس الاسم الذي اختاره لكتابة الوضع الاجتماعي ربما يكون أهم من النظام الغذائي الذي يتبعه الانسان بل وأهم من الرعاية الصحية التي يحظى بها علي امتداد عمره.. لكن هذا لا يعني أن الأشخاص الذين يشغلون مناصب مرموقة لا يعانون من الأمراض نهائياً.. بل يعني أن معدل إصابتهم بالأمراض يكون أقل بكثير من غيرهم.. وذلك نتيجة ارتفاع حالتهم النفسية وبالتالي يكونون أقل عرضة للإصابة بالأمراض وتزداد قدرتهم علي مقاومة الأمراض.. كما أظهرت الدراسة وجود فروق شاسعة من حيث المستوي الاجتماعي والحالة النفسية بين الأشخاص الذين يحتلون قمة الهرم الوظيفي.. وهؤلاء الموجودين أسفل هذا الهرم من موظفي الأمن والنظافة وغيرهم.

لقد اكتشف البروفيسور مارموت ومعه 120 باحثاً أن الضغوط النفسية والاجتماعية التي يعانيها من هم في آخر درجات الهرم الوظيفي والاجتماعي تؤثر علي صحتهم بشكل سلبي.. وبالتالي تقصر أعمارهم نتيجة لإصابتهم بأمراض خطيرة.

وفجرت الدراسة مفاجأة فيما يتعلق بارتباط المستوي الاجتماعي بالصحة النفسية والاجتماعية.. فقد أظهرت النتائج اتساع الفوارق الاجتماعية والصحية بين الأشخاص الذين شملتهم الدراسة بشكل كبير علي الرغم من عدم وجود فروق كبيرة بين هؤلاء الأشخاص من حيث الفقر والغني.

أي أن الموظفين الذين شملتهم الدراسة من اختلاف مناصبهم لا يوجد بينهم من هو شديد الثراء أو شديد الفقر.. وهو ما يعني ان الحالة الصحية للانسان لا تتأثر بالغني والفقر كما هو الاعتقاد السائد بقدر ماتتأثر بالوضع الاجتماعي والوظيفي للفرد فالنتائج تؤكد ان أصحاب الدرجات الوسطي في الهرم الوظيفي يعانون من ضغوط اجتماعية ونفسية وصحية بمعدل يصل إلي ضعف من يقفون علي قمة الهرم الاجتماعي والوظيفي رغم عدم وجود فروق تذكر في المستوي المادي بين المجموعتين الأولى والثانية وتوصلوا إلي أن السبب الحقيقي وراء هذه الفروق الشاسعة بين المجموعتين وتساءلوا هل السبب يرجع إلي التدخين أو ارتفاع ضغط الدم أو البدانة ولكن توصلوا إلي السبب الحقيقي وراء هذه الفروق.

وهو قدرة الانسان في التحكم في مصيره.. فكلما انخفض المستوي الاجتماعي انخفضت قدرته.. بل الفرص المتاحة أمامه للتأثير في الأحداث التي تمس حياته ومستقبله وهو ما يكون له أثر بالغ في الضغط النفسي والعصبي ولذلك كانت النصيحة بضرورة منح الناس المزيد من السيطرة علي حياتهم وضمان أن يلعبوا دوراً كاملاً ومؤثراً في المجتمع.

فهناك علاقة وثيقة بين سوء الحالة الصحية والوضع الاجتماعي وليس الغني أو الفقر فالذي يعاني من ضغوط في العمل وانخفاض مستواه الاجتماعي يعاني من أمراض ضغط الدم والسكر وأمراض القلب.. والسؤال الآن الذي يطرح لماذا أرقام جهاز التعبئة والاحصاء تشير إلي أن المرأة أطول عمراً من الرجل.. هل السبب هي النتائج السابقة للبحث البريطاني؟ أم ماذا؟

وفي النهاية ان معرفة عمر الانسان سوف تظل إلي الأبد لغزاً مجهولاً لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.